| أ.د. رضوان محمد حسين النجار | الشعر الجاهلي وعلم النفس | كلية الآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم اللغة والأدب العربي - جامعة تلمسان - |
|---|---|---|

لا شك أن علم النفس بقوانينه المعروفة ، علمٌ حديث النشأة والتنظيم والتنسيق، إلاّ أنَّ جذوره – شأنه في ذلك شأن العلوم الأخرى – ممتدة إلى أعماق التاريخ القديم الماضي – وأن أصوله نابعة من تجارب الأمم العالمية بعامة ومستمدة من تجاريب أمّة العرب بخاصّة.

ولما كان الشعر ديوانَ العرب ،فإننا – لا محالة- واجدون في هذا الشعر الكثير من المبادئ النفسية التي تكَوَّن منها وعلى أثرها فيما بعد علم النفس الحديث .

و» لا ريب أنّ معلومات العرب القدامى في هذا المجال (النفسي) ليست مجموعة ولا منسقة لأنَّ علم النفس ،حديث العهد ، ولكنّها منثورة في أدبهم كالدرر ينعكس عنه لألاؤها «(1)

وكان لأدباء العرب وشعرائها باع طويل في هذا المضمار، ناهيك أن شعراء العرب القدامى كانوا يعبّرون في الغالب عن أحاسيسهم وتجاربهم في الحياة دون تأثر بأقوال سابقيهم .

ومع هذا فإنه يتبين للدارس في أشعارهم أنهم كانوا يمتلكون ثروة معرفية عن النفس الإنسانية قولاً ووصفًا ، خبرة وتجربة .

وأن هذه المعارف النفسية تتّفق إلى حدّ بعيد مع قواعد علم النفس الحديث .

ها هوذا حكيم الجاهلية زُهيربن أبي سُـلمى المُزَني يجعل من شخصه عالمًا من علماء النفس ليعرض للسلوك الإنساني من حيث المظهروالمخبر، هذا السلوك الذي يتميزبه الفرد عن سواه من الأفراد الآخرين.

هذا التميزالسلوكي الذي يطبع الشخص بطابعه الشخصي المميز.

يقول زهير:

وكائِنْ تَرى من صامتٍ لك مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أو نَقْصُهُ في التكلُّـــم
لِسانُ الفَتَـي نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤَادُه فلمْ يبقَ إلاَّ صُورةُ اللَّحـــمِ والدَّمِ
ومَهْمَا تَكُنْ عندَ أمرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ و إنْ خَالَهَا تَخْفى علَـى النَّاسِ تُعْلَمِ

ففي هذا القول الوارد على لسان الشاعر الجاهلي المزنـي ،ما يتوافق وغايات علم النفس وميادينه المتعلقة بالكشف عـن تصرفات النفس الإنسانية ،فشلاً ونجاحًا ،صنعةً ورفعةً ....إلخ .

تهذيب النفس وعلاقتها بالبيئة والوراثة :

شغلت مسألتا البيئة و الوراثة، و مدى أثرهما في تكوين النفس الإنسانية ، وفي تصرفات الإنسـان الفلاسـفة والعلماء – علماء النفس خاصة- حتى يومنا هذا ، ولا تزال موضوع جدل بينهم دائرومستمربينهم .

فمنهم من يرى أن العامل المؤثرفي ذلك إنّما هو البيئة دون سواها ، ومـن قال أن العامل المؤثرهو الوراثة.

وذهب آخرون إلى أنَّ الإنسـان منتوج العاملين معًا ، وإن اختلف العاملان تأثيرًا(2)

وأدباء العرب وعلماؤها وشعراؤها لم يكونوا في منأى عن هذه البحوث النفسية والدراسات الإنسانية . بل أدلوا بدلائهم في هذه المسألة

إد ارتأى بعضهم أن المرء نتيجة بيئته :

يقول عروة بن الزبير: « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم »(3)

ويقول بديع الزمان الهمداني :» إني وإن لم أكن خراساني الطينة ،فإني خراساني المدنية ، والمرء من حيث يوجد لا من حيث يولد . والإنسان من حيث يثبت لا من حيت ينبتُ»(4)

وللعلماء والشعراء أقوال وآراء عديدة يؤيدون فيها أثر البيئة على الإنسان لأنّهم يردون الأثر في النفسية الإنسانية إلى العادات المكتسبة لا إلى الوراثة .

بيد أن الكثيرين من أدباء العرب وعلمائها وشعرائها يؤثرون الوراثة ويعتقدون أن الوراثة هي العامل المؤثر في حياة الإنسان وتصرّفاته .

ومن أقوالهم في ذلك :

«هل تلد الحيّةُ إلاّ الحية» (5)

و«لا تلدُ الذئبةُ إلاّ ذئبًا»(6)

و«الطبيعة أغلب على الرجل من الأدب، لأنّها أصلٌ والأدب فرعٌ وكلُّ فرعٍ يُرَدُّ إلى أَصْلِهِ »(7)

وفي مجال تهذيب النفس فإن شاعرنا الجاهلي زُهَيْراً يرى أنَّ التهذيب للإنسان ونفسه ممكن وفي المستطاع إذا تأثر بعوامل البيئة التي تساعده على هذا التهذيب .

وبذلك يكون زهيرُبنُ أبي سُلمَى من أنصار الفريق القائل أن البيئة هي العامل المؤثر في النفس الإنسانية، وهو بذلك يقع في موقع النقيض مع الفريق الذي يرى أن الوراثة هي العامل الأقوى في تقويم النفس الإنسانية وتهذيبها على اعتبار أن الطبائع والأخلاق موروثة متوارثة يأخذها الأبناء على الآباء ويتناقلها الآباء عن الأجداد .

وعلى الرغم من إيمان زهير بأثر البيئة في النفس الإنسانية وإمكانية تهذيبها فإنه يرى أنَّ الأمر ليس أمرًا سهلاً وميسورًا وإنّما يكون ذلك في الصِّغَرِ.

إذْ أجمع الأدباءُ و الشعراءُ على أنَّ تهذيبَ النفس وتقويم الإنسان في الصغر أسهل منه في الكبر.

فقالوا :" تغيير الطبائع في زمن رطوبة الغصن أقبل"(8)

وقالوا : " ما أشد فطام الكبير"(9)

و إذا كان التهذيب بوجه عام فيه صعوبة فإنه بلا شك في الكبر أكثر صعوبة .

يقول زهير بن أبي سلمَى :

وإن سِفَاهَ الشَّيْخ لا حِلْمَ بَعْـــدَهُ و إنَّ الفَتَى بَعْدَ السِّفَاهَةِ يَحْلُـمِ (10)

وتبعه في هذا الموقف الشاعر العباسي صالح بن عبد القدوس

في قوله :

والشَّيخُ لا يَتْرُكُ أَخلاقَـــــه حتىَّ يُوارَى في ثَرى رَمْسِـهِ(11)

وشبيه بهدا القول قول أحدهم :

إنَّ الغُصُونَ إذَا قَوَّمْتَـهَا اُعْتَدَلَتْ و لا يَلِينُ إذَا قَوَّمْتَـــهُ ٱلْحَطَبُ

الإرادة :

الإرادة مجالٌ من مجالات الدرس في علم النّفس : وقد عرفها العرب حقّ المعرفة وإن لم يعملوا على تنظيمها ضمن قواعد علميّة .

وتعددت أنواع الإرادة لدى العرب تبعًا لحياتهم وبيئتهم .

«عرف العرب من الإرادة ثلاثة أنواع : إرادة الحياة وما يقابلها من إرادة الموت.

و إرادة القوّة وما يقابلها من إرادة الضعف .

و إرادة السيادة وما يقابلها من إرادة الخضوع»(12)

نعم عرف العرب إرادتي القوة و الضعف، وتبينوا أثرهما في حيـاة الناس وأحسوا بقيمة إرادة القوة فامتدحوها وشجّعوا عليها .

وعلموا السلبيات المترتبة على إرادة الضعف فعملوا على تجنبها ونهوا على إتباعها بل شرعوا في هجو أصحابها وأتباعها .

يقول زهير بن أبي سلمى في مدح إرادة القوّة وبيان إيجابياتها :

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِه يُهَدَّمُ ،وَمَنْ لاَ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ(13)

علينا ألاّ نفهم من قول هذا الشاعر الجاهلي أنه دعوة للظلم والتشجيع عليه ، بل المطلوب من المرء أن يكون قادرًا على ردع المعتدي ورد الظلم حتى ولو كان بالظلم نفسه.

لأنّ الظالم لا يترك ظلمه إلاّ إذا علم أن خصمه يتسم بالقوة والمنعة .

وفي بيان قول حكيم الجاهلية زهير المُزني ، يقول فارس الجاهلية عنترة بن شداد العبسي : (14)

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْت فإنَّنِي سَمْحٌ مُخَالَفَتِي إذَا لم أُظْلَمِ
فَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ

لقد أحبّ العرب إرادة القوة واحترموا بذلك القوي - وبالمقابل احتقروا الضعف وهَجَوْا الضعيف .

وهذا أحد الشعراء وقد هجا قومه لتقاعسهم وضعفهم عن نصرته :

لَو كنتُ مِنْ مَازِنٍ لم يَسْتَبِحْ إبلي بَنُوا اللَّقِيطةِ من ذُهْلِ بن شَيْبَانا
لكنَّ قَوْمي وإنْ كانُوا ذوي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنْ الشَّرِّ فِي شيءٍ وإنْ هَانَا
يجزون مِن ظُلْمِ أَهْلِ الظّلْم مَغْفِرَةً وَ مِنْ إساءةِ أهلِ السُّوءِ إحْسَانا
كَأَنَّ رَبَّكَ لم يَخْلُقْ لِخشْيَّتِه سِوَاهُمْ من جميعِ النَّاس إنسَانَا !

إن طعم الموت واحد ، يقول المتنبي :

فطعَم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ في أمرٍ عظيمِ (15)

وما دام الأمر كذلك فلا يجوز للمرء أن يكون جبانا ،فإنـه لا مفرَّ من الموت .

وطعم الموت واحد :

و لَو أَنَّ الحيَاةَ تبقيَ لحـــيًّ     لَعَدْنَا أَضَلَّنَـا الشُّجْعَانَـــا

وَإِذَا لَم يَكُنْ مِنَ المـــوتِ بُدٌّ     فَمِنَ العجزِ أَنْ تكُونَ جَبَـــانَا(16)

**الشخصيـــة :**

الرجل صاحب الشخصية القوية . المكتملة السليمة لا يعرّض نفسه للسخرية والهزء .

ومثل هذه القضايا تعود إلى شخصيّة الإنســان نفسه فإمّا أن يعرّضها للسوء والنقص بأفعاله الدنيئة .

وإمّا أن يسـموبها إلى العلـــ في ترك الدنايا وصغار الأمور ويصون نفســه ممّا يحط بها عن قدرها وقيمتها .

وقديمًا قالوا :« الوضيع من وضع نفسه»(17)

وفي معرض هذا قال زهيربن أبي سلمى :

و مَنْ يَجْعَلِ المعروفَ مِنْ دُونِ عِرْضِه يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمِ يُشْتَـــمِ (18)

وشبيه بهذا قول المثقّب ألْعَبْديّ :

و أعْلَمُ أنَّ الذَّمَ نَقْـــصٌ للفتَـى و متَى لاَ يتَّقِ الذَّمَ يُذْمَـــــمِ(19)

و الإنسان إذا لم يكرم نفسه بتجنب الدنايا، فلن يكرمه الناس قال زهير:

« ومَنْ لَمْ يُكَرِّم نفسه لم يكرَّمِ(20)

وعليه فالمرء حيث وضع نفسه حقا وفي هذا المجال قال منقرة بن عروة:

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نَفْسَـــهُ ففي صالحِ الأعمالِ نَفْسَكَ فاَجعَلِ(21)

**النفع والضرر :**

تحب العرب الشخص أن يكون خيرًا لجاره وأصدقائه وبني قومه وأن يلحق الضرر بأعدائه .

وتفضل هذا الشخص النافع الضّار على الشخص الذي لا نفع فيه ولا ضرر منه.

قال أحدهم يهجو بني مازن :

وَمَا فعلتْ مـــــازنُ خيرًا و لا فَعَلْتَ مازنُ شـــــرًّا(22)

وَلِذَا لا بدَّ من الفتى أن يؤثّر في حياته إيجابًا أو سلبًا :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَنْفَعْ فَضُـــرْ فإنَّمَا خُلِقَ الفَتَي كَيْمَا يَضُرَّ ويَنْفَعَـــا(23)

ولذا المطلوب من الإنسان أن يكون حريصًا على ذويه ،يقدّم لهم ماله وفضله ولا يبخل عليهم بفضلٍ ،خوفًا من شماتة الأعداء وإذا لم يفعل ذلك فلا فائدة مرجوّه منه، فمصيره الذل والإهمال والهوان .

قال زُهَيْرُبنُ أَبي سُلْمَى:

و مَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيُبْخَل بِفَضْلِهِ عَلَي قَوْمه يُسْتَغْنَ عَنْـهُ ويُذْمَمِ(24)

وفي هذا البيت (بيت زهير) إيحاءٌ وتعريضٌ مُتَضَمّنٌ لمعنى النصح المشجع على بذل الفضل .

و التحذير من البخل الّذي يدفعه إلى حرمان أهله من أفضاله.

ولهذا الأسلوب قيمته.

قال صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه( ٢٥)

« إدا أردت أن تدل أحدًا على عيبه فلا تواجهه بذلك ولكن اضرب له الأمثال وخبّره بعيب غيره ليعرف عيب نفسه»

**الفراســـة :**

مهما كان لدى الإنســان من أخلاق وحاولـــ إخفاءها فإنّها لا محالة ظاهرة في حين من الأحايين :

ومَهْمَا تَكُنْ عندَ اِمرىءٍ من خَلِيقَةٍ وإنْ خَالَهَا تَخْفَى علَى النَّاسِ تُعْلَمِ (26)

وقد يكون النظر في الوجه لمعرفة أخلاقـــ المرء عن طريق الفراسة أسلوبًا من أساليب معرفة الأخلاق وبيانها يقول زهير أيضًا :

مَتىَ تَكُ في صَدِيقٍ أو عَـــدُوٍّ تُخَبِّرْكَ الوّجُوهُ عنِ القلـــوبِ (27)

فهو يرى أن الوجه يخبر عمّا في نفس الإنسان وما يضمره قلبه من ودّ أو بغض.

ويؤكد هذا المعنى حكيم الجاهلية زهيرٌ نفسه فيقول

الوُدُّ لاَ يَخْفـــى وإنْ أَخْفَيْتَهُ و البُغْضُ تُبْدِيه لَكَ العَيْنَـــانِ (28)

## الهوامش

(1) الأستاد زهدي جارالله – أصول علم النفس في الأدب العربي القديم – بيروت – 1978 – ص 9

(2) أصول علم النفس في الأدب العربي القديم – ص 31 ( بتصرف)

(3) الجاحظ : البيان والتبيين 2/202

(4) ياقوت : معجم الأدباء 2/202

(5) الأغاني 2/421

(6) العقد الفريد 3/102

(7) العقد الفريد 3/4

(8) المحاسن والأضداد – ص 12

(9) البيان والتبيين 1/120-

(10) ديوان زهير – ص 89

(11) البيان والتبيين – 1/120

(12) أصول علم النفس في الأدب العربي القديم – ص 43

(13) ديوان زهير – ص 23

(14) حماسة البحتري – ص 163

(15) ديوان المتنبي – ص 238

(16) المصدر نفسه – ص 245

(17) العقد الفريد 3/80

(18) ديوان زهير ص 87

(19) المفضليات 1/589

(20) شرح المعلقات العشر – ص 95

وصدر البيت : ومَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عدوًّا صديقَهُ

(21) البيان والتبين 3/163

(22) البيان والتبين 1/197

(23) العقد الفريد 3/15

(24) شرح المعلّقات السبع – ص 119 (طبعة دار الجيل – بيروت)

(25) العقد الفريد : 1/21

(26) ديوان زهير: ص 88 (طبعة بيروت)

(27) المصر نفسه : ص 16

(28) المصدر السابق ص 105